# البَابُ العِشْرُون

## الكرامة الحسية

[ ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة ] .

قلت : الكرامة الحسية هى خرق الحس العادى ، كالمشى على الماء ، والطيران فى الهواء وعلى الأرض ، ونبع الماء ، وجلب الطعام والاطلاع على المغيبات ، وغير ذلك من خوارق العادات .

والكرامة المعنوية : هى استقامة العبد مع ربه فى الظاهر والباطن ، وكشف الحجاب عن قلبه حتى عرف مولاه ، والظفر بنفسه ومخالفة هواه ، وقوة يقينه وسكونه ، وطمأنينته بالله ، والمعتبر عن المحققين هى هذه الكرامة الحسية ، فلا يطلبونها ولا يلتفتون إليها ، إذ قد تظهر على يد من لم تكمل استقامته ، بل قد تظهر على يد من لا استقامة له أصلا كالسحرة والكهان ، وقد تظهر على أيدى الرهبان وليست بكرامة إنما هى استدراج .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان . وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ، ومجانبة الدعاوى والمخادعة ، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مغتر كذاب ، أو ذو خطأ فى العلم والعمل بالصواب ، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا ، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع المرضى . قال : وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور ، أو ناقص أو هالك أو مثبور اهـ .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : ليس الشأن من تطوى له الأرض فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان ، إنما الشأن من تطوى له صفات نفسه فإذا هو عند ربه .

قلت : والكرامة الحقيقية : هى الاستقامة على الدين ، وحصول كمال

اليقين . وأما خوارق العادات الحسية ، فإن صحبتها الاستقامة ظاهرًا وباطنًا وجب تعظيم صاحبها ، لأنها شاهدة له بالكمال مما هو فيه ، وإن لم تصحبها استقامة فلا عبرة بها .

والغالب أن أهل الباطن كرامتهم باطنية ، ككشف الحجب ومزيد الإيمان ، ومعرفة الشهود والعيان ، وكذلك عقوبة من آذاهم جلُّها باطنية لا يتفطنون لها ، كقساوة القلب والانهماك فى الذنوب ، والغفلة عن الله والبعد عن حضرته ، ولكن لا يشعرون ، وهى أعظم من العقوبة فى الحس .

والحاصل : أن أهل الاستقامة الظاهرية كرامتهم ظاهرية حسية ، وأهل الاستقامة الباطنية كرامتهم باطنية معنوية ، أهل الظاهر من آذاهم عوقب فى الظاهر ، وأهل الباطن من آذاهم عوقب فى الباطن ، وقد لا يعاقب لأنهم رحمة ، كل من قرب منهم شملته الرحمة كان قربه تسليمًا أو إنكارًا ، هم قوم لا يشقى جليسهم ، فهم على قدم النبى ﷺ ، حيث قال :

« اللهُمَّ اغْفِر لقَوْمى فَإِنَّهمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

وكل ولى أراد الله تعالى أن ينتفع الناس على يده لا يعاجل بالعقوبة من آذاه اقتداء برسول الله ﷺ ، حيث خيّره ملَك الجبال فحلم ﷺ وعفا ، وقال :

« لَعَلَّ الله أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَقُولُ : لَا إِلـٰهَ إِلَّا الله »

والله تعالى أعلم .

وأعظم الكرامة الفهم عن الله ، والرضا بقضاء الله وترك التدبر والاختيار مع الله ، وإقامة العبد حيث إقامة الله ، كما أبان ذلك بقوله :

**[ من علامات إقامة الحق لك فى الشىء إدامته إياك فيه مع حصول النتائج ] .**

قلت : إذا أقام الحق تعالى عبده فى حالة لا يستقبحها الشرع ولا يذمها سليم الطبع ، فلا ينبغى له الانتقال عنها بنفسه حتى يكون الحق تعالى الذى أدخله فيها هو الذى يتولى إخراجه منها .

( وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ )[1] .

فالمدخل الصدق أن تدخل فى الشىء بالله لا بنفسك ، والمخرج الصدق أن تخرج منه بالله لا بنفسك . فإذا أقامك الحق تعالى فى الأسباب فلا تخرج منها بنفسك فتتعب ، فامكث حتى يخرجك الحق تعالى بإشارة صريحة من شيخك أو من هاتف من عند ربك ، وقد تقدم هذا فى أول الكتاب .

ومن علامة إقامة الله تعالى لك فى ذلك الشىء الذى أنت فيه إدامة الحق إياك فى ذلك الشىء مع حصول النتائج وسلامة الدين ، والمراد بالنتائج ما يترتب عليه من إعطاء حقه الواجب والمستحب ، كأداء الزكاة ، وإطعام الجائع ، وستر العريان ، وإغاثة اللهفان وغير ذلك من أنواع الإحسان .

وإذا أقامه الحق تعالى فى نشر العلم الظاهر ، فعلامة إقامة الحق فيه تعليمه لله ، ونفع عباد الله ، والزهد فى الدنيا ، والرغبة فيما عند الله والتواضع ، والصبر على جفاء المتعلمين ، وهكذا سائر الحرف إذا كان فيها على المنهج الشرعى ، فلا ينتقل عنها بنفسه .

وإذا أقامك الحق تعالى فى التجريد فالزم الباب ، وتحلّ بالآداب ، حتى يفتح لك الباب ، فعلامة إقامته إياك فيه حصول نتائجه ، وهى الترقى فى الأحوال والمقامات ، حتى تبلغ النهايات ، والمقامات : هى التوبة والتقوى والاستقامة ، والزهد والورع ، والخوف والرجاء ، والرضا والتسليم ، والإخلاص والصدق ، والطمأنينة والمراقبة ، والمشاهدة والمعرفة ، وكل مقام له علم وعمل وحال ، فأوله علم ، وثانيه عمل ، وثالثه حال ثم مقام ، فإذا بلغ إلى مقام المعرفة وتمكن فيها انقطعت المقامات .

قال بعضهم : فى بحر التوحيد غاصت الأحوال ، وانطمست المقامات . ( وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى )[2] . فحينئذ يغمس فى بحر الإحسان .

فإذا عبر من بساط إحسان الله له لم يصمت إذا أساء ، كما أبان ذلك بقوله : [ من عبر من بساط إحسانه أصمتته الإساءة ، ومن عبر من بساط

---

( ١ ) الإسراء : ٨٠ .  ( ٢ ) النجم : ٤٢ .

**إحسان الله إليه لم يصمت إذا أساء ] .**

قلت : أهل التعبير ، وهم أهل التذكير الذين يذكرون عباد الله ، ويعبرون عما منحهم الله به من العلوم والمواهب والفتوحات والكرامات على قسمين : علماء وعارفون .

أو تقول : أهل الحجاب وأهل الفتح ، فأهل الحجاب يعبرون من بساط إحسان أنفسهم فيقولون : فعلنا كذا ، ورأينا كذا ، وفتح علينا فى كذا ، وافعلوا أيها الناس كذا ، واتركوا كذا ، فإذا وقعوا فى زلة أو هفوة ، سكتوا حياء من الله ، وخوفًا أن يأمروا بما لم يفعلوا ، لأنهم باقون مع نفوسهم محجوبون عن ربهم ، فإذا فعلوا طاعة فرحوا بها واعتمدوا عليها ، وإذا فعلوا زلة حزنوا وجزعوا وسقط فى أيديهم ، فلما عبروا من بساط إحسان نفوسهم أصمتتهم الإساءة . وأهل الفتح من العارفين ، يعبرون من بساط إحسان الحق ، غائبين عن شهود الخلق ، فانون عن أنفسهم باقون بربهم .

فهؤلاء إذا عبروا عما منحهم الله من المعارف والأسرار والعلوم والأنوار والكرامات والفتوحات والمواهب وذكروا ، فأمروا ونهوا دام تعبيرهم ونفع تذكيرهم ، فإذا أساءوا لم تصمتهم إساءتهم ، لأن إساءتهم من أنفسهم وتعبيرهم من بساط إحسان الله إليهم ، وإحسانه لا يكدره شىء . وقولنا : من أنفسهم أعنى أدبًا فقط ، إذ هم لا يشهدون إلا تصريف الحق فيهم ، فلذلك لم تصمتهم إساءتهم ، لأنهم مغموسون فى بحر المنة لا يشهدون فى الكون سواه .

وأيضًا من عبر من بساط نفسه نادته مساويه اسكت ، أما تذكر فعلك القبيح ووصفك الذميم ؟ فيسكت خجلا . ومن عبر من بساط إحسان الله غابت عنه مساويه لغيبته فى محاسن مولاه ، فلا يشهد إلا إياه .

فإذا أراد أن يعبر سبق نور معرفته إلى قلوب عباده ، فيسرى فيهم التعبير ويأخذ بقلوبهم التذكير ، كما أبان ذلك بقوله :

**[ تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ، فحيثما صار التنوير وصل التعبير ] .**

قلت : الحكماء هم العارفون بالله الذين يتكلمون بالله ويصمتون بالله ، غائبون عن أنفسهم ، يشهدون ما من الله إلى الله ، فإذا أرادوا أن يعبروا عما

منحهم مولاهم من العلوم والمعارف سبق نور شهودهم إلى القلوب المستمعة ، فتسرى فيهم على قدر صدقهم .

فمنهم من يدخل النور سويداء قلبه . ومنهم من يقف النور على ظاهر قلبه . ومنهم من شرق النور على طرف قلبه ، فإذا عبر العارف عن المقامات والأحوال وصل التعبير على قدر سريان النور ، فمن وصل النور إلى سويداء قلبه نهض من ساعته إلى ربه ، ومن وصل ظاهر قلبه خشع وخضع وعزم على البر والتقوى ، ومن وصل إلى طرف قلبه عرف الحق وصدق ، فحيثما صار التنوير وصل التعبير ، وقولنا فى تفسير الحكماء هم العارفون مأخذنا فيه ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « رَأْسُ الْحِكْمَة مَخَافَةُ الله » اهـ .

أعرف الناس بالله أشدهم له خشية ، وفيهم قال الله تعالى :

( إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ )[1] .

وسئل مالك عن الحكمة ؟ فقال : مازهد عبد واتقى إلا أنطقه الله بالحكمة ، ثم قال : من أراد أن يفتح الله عين قلبه فليكن عمله فى السر أكثر من عمله فى العلانية ، لأن عمل السر منبع الإخلاص ، والإخلاص منبع الحكمة .

وسئل مرة أخرى عن الحكمة أيضا ؟ فقال : نور يقذفه الله فى قلب العبد المؤمن من فسحة الملك اهـ . فأهل التنوير هم الحكماء وهم العارفون بالله ، ولله در القائل فى وصفهم حيث قال :

هَيْنونَ لَيْنُونَ أَيْسَارٌ بَنُو يَسَرٍ ... سُوَّاسُ مَكْرُمَةٍ أَبْنَاءُ أَيْسَارِ
لَا يَنْطِقُونَ بِغَيْرِ الْحَقِّ إِنْ نَطَقُوا ... وَلَا يُمَارُونَ إِنْ مَارُوا بِإِكْثَارِ
مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ ... مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِى يَسْرِى بِهَا السَّارِى

وقولنا فى وصفهم : يشهدون ما من الله إلى الله ، يعنى أنهم غائبون عن أنفسهم لا يرون إلا تصريف الحق فى مظاهر أنواره .

قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : الناس على ثلاثة : عبد

---

( ١ ) فاطر : ٢٨ .

يشهد ما منه إلى الله ، وعبد يشهد ما من الله إليه ، وعبد يشهد ما من الله إلى الله : الأول ذو حزن وأشجان ، والثانى ذو فرح وامتنان . والثالث لم يشغله عن الله خوف نار ولا مثوى جنان ، الأول ذو كد وتكليف . والثانى ذو عناية وتعريف . والثالث مشاهد للمولى اللطيف .

ثم قال : وقيل العمل مع شهود المنة خير من كثيره مع رؤية التقصير من النفس اهـ مختصرًا .

ثم ذكر علامة التعبير الذى يسبقه التنوير والذى يسبقه التكدير فقال :

[ **كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز** ] .

قلت : علامة الكلام الذى يسبقه التنوير هو تأثيره فى القلوب وتهييجه الأرواح وتشويقه الأسرار ، فإذا سمعه الغافل تنبه ، وإذا سمعه العاصى انزجر ، وإذا سمعه الطائع زاد نشاطه وعظم شوقه ، وإذا سمعه السائر طوى عنه تعب سيره ، وإذا سمعه الواصل تمكن من حاله ، فالكلام صفة المتكلم ، فإذا كان المتكلم ذا تنوير وقع فى قلوب السامعين ، وإذا كان ذا تكدير حد كلامه آذان المستمعين ، فكل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز ، ولذلك قال سيدنا على كرم الله وجهه : من تكلم عرفناه من ساعته ، ومن لم يتكلم عرفناه من يومه .

وقيل الناس حوانيت مغلقة ، فإذا تكلموا فقد فتحوا ، هناك يتبين البيطار من العطار .

وقالوا أيضًا : الكلام إذا خرج من القلب وقع فى القلب ، وإذا خرج من اللسان حده الآذان ، وإنهاض الحال أكثر من المقال ، وإذا اجتمع الحال والمقال فهو البحر الطام ، والنجم الثاقب التام .

وقال بعض العارفين : من كان قلبه روحانيًّا كان كلامه معنويًّا ينزل من القلوب أوسع ساحاتها ، ومن كان قلبه نفسيًّا كان كلامه حسيًّا يعنى لا يتكلم إلا فى الحس ولا يخوض إلا فيه ، ومن طمس أذن قلبه حجب الدنيا فلا يسمع ولا يسمع .

وقد يكون من الناس من هو عالم اللسان جاهل القلب ، وعلامته ترجيح حديث الدنيا على حديث الآخرة ، أو حديث الحس على حديث المعنى ، ومن

مثل هذا الحذر الحذر ، لأن قلبه ميت فكلامه كله على الميتة والميتة هى الجيفة .

قال صلى الله عليه وسلم : « الدُّنْيَا جِيفَةٌ وَطُلابُهَا كِلَابٌ » .

فمن تكلم على الدنيا فمثله كالكلب ولا خير فى كلب ولو كان عالمًا قاله الشطيبى .

## حسن التعبير والقبول

ثم إن هذه الكسوة التى تبرز على الكلام ، إنما هى من نتائج الإذن من الله فيه ، وأما إذا لم يكن إذن فيه فلا كسوة عليه ، كما أبان ذلك بقوله :

[ من أذن له فى التعبير ، حسنت فى مسامع الخلق عبارته ، وجلبت إليهم إشارته ] .

قلت : الإذن فى التعبير إنما يكون على يد الشيخ الكامل العارف ، الذى أهله الله للتربية ونصبه للتوصيل والترقية ، فإذا رأى على تلميذه أهلية التذكير أذن له فى التعبير ، فإذا عبر أخذ بمجامع القلوب ، وفاض من لسانه أسرار علم الغيوب ، فتحسن فى مسامع الخلق عبارته ، وتجلى إليهم إشارته أى تظهر وتفهم ، ولا عبرة عند المحققين بلحن الكلام وإعرابه ولا خطأ فى رفعه ونصبه من صوابه ، وإنما العبرة بالمعانى دون القوالب والأوانى .

يحكى أن بعض النحويين دخل مجلس الحسن بن سمعون ليسمع كلامه فوجده يلحن فانصرف ذامًّا له ، فبلغ ذلك الحسن ، فكتب له : إنك من كثرة الإعجاب رضيت بالوقوف دون الباب ، فاعتمدت على ضبط أقوالك مع لحن أفعالك ، وإنك قد تهت بين خفض ورفع ونصب وجزم ، فانقطعت عن المقصود ، هل لارفعت إلى الله جميع الحاجات ، وخفضت كل المنكرات ، وجزمت عن الشهوات ، ونصبت بين عينيك الممات ؟ والله ياأخى ما يقال للعبد لم لَمْ تكن معربًا ، وإنما يقال له لم كنت مذنبًا ، ليس المراد فصاحة المقال ، وإنما المراد فصاحة الفعال ، ولو كان الفضل فى فصاحة اللسان لكان سيدنا هارون

أولى بالرسالة من سيدنا موسى حيث يقول :

( وَأَخى هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسانًا )[1] اهـ .

ومما ينسب للخليل رحمه الله أو لسيبويه :

لِسَانٌ فَصِيح مُعرِبٌ فى كلَامِهِ ... فَيَالَيْتَهُ مِنْ وَقْفَةِ الْعَرْضِ يَسْلَمُ
وَلَا خَيْرَ فى عَبْدٍ إذَا لَمْ يكُنْ تُقًى ... وَمَاضَرَّ ذَا تَقْوَى لِسَانٌ مُعَجَّمُ

وقال آخر :

مُنْحَرِفٌ بِالْفِعالِ وَذُو زَلَلِ ... وَإِنْ تَكَلم فى جدالِهِ وَزَنَهْ
قَالَ وَقَدْ كَتَبْتُ لَفْظَتَهُ ... تيهًا وَعُجْبًا أَخْطَأَ مَالَحَنَهْ
وَإِنَّمَا أَخْطَأَ مَنْ قَامَ غَدًا ... وَلَا يُرَى فى كِتابِهِ حَسَنَهْ

وكان شيخ شيخنا رضى الله عنه إذا ذكر من تقدم له فى العربية يقول له : أنت اترك شيئًا من عربيتك ، وأنا أترك شيئًا من جَبَليتى ، يعنى من اللغة الجبلية ونلفت للطريق .

والحاصل : أن من اجتمع فيه الحال وفصاحة المقال ، فهو كمال الكمال . وذلك لأنه ينتفع بكلامه بعد موته : كالغزال والششترى والشاذلى والمرسى والشيخ رضى الله عنهم ، فقد عظم النفع بكلامهم ، وأعظمهم المؤلف رضى الله عنه ، فقد حاز قصب السبق فى التعبير ، ونسخت كتبه كتب القوم ، وقد شهد له شيخه بهذا المعنى فقال : والله لا يموت هذا الشاب حتى يكون داعيًا يدعو إلى الله ، وقال له : والله ليكونن لك شأن عظيم ، والله ليكونن لك شأن عظيم .

وقال فيه أيضًا حين نسخ له كتاب التهذيب: والله لأجعلنك عينًا من عيون الله يقتدى بك فى علم الظاهر والباطن .

وقال فيه أيضًا : والله ما أرضى له بجلسة جَدّه ولكن بزيادة التصوف ، وكان

---

( ١ ) القصص : ٣٤ .

جده فقيهًا شرح المدونة اسمه عبد الكريم ، وكلام الشيخ رضى الله عنه يدل على مقامه ، وما تخلص التصوف ولا تهذب إلا على يديه ، فقد قرّب المدارك وبيّن المسالك فى أحسن عبارة وأوجز لفظ وإشارة ، جزاه الله عن المسلمين خيرًا .

ثم بين رضى الله عنه الكلام الذى لم يؤذن لصاحبه فى التعبير عنه فقال :

[ ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار ، إذ لم يؤذن لك فيها بالإظهار ] .

قلت : قد يتكلم الإنسان بحكم وحقائق ، مع فصاحة وبلاغة وشقاشق ، لكنها مكسوفة الأنوار مطموسة الأسرار ، ليس فيها حلاوة ، ولا عليها طلاوة ، سبب ذلك عدم الإذن فيها ، إذ لو أذن له فى التعبير ، لظهر عليها كسوة التنوير .

قال فى لطائف المنن : من أجل مواهب الله لأوليائه وجود العبارة .

قال : وسمعت شيخنا أبا العباس يقول : الولى يكون مشحونًا بالمعارف والعلوم ، والحقائق لديه مشهورة ، حتى إذا أعطى العبارة كان ذلك كالإذن من الله فى الكلام .

قال : وسمعت أبا العباس يقول : كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة ، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر اهـ .

قلت : وينبغى لأهل التعبير أن يخاطبوا الناس بقدر ما يفهمون ، فليس التعبير لأهل البداية كأهل النهاية . وفى الحديث .

« خَاطِبُوا النَّاسَ بِقَدْرِ مَا يَفْهَمُونَ » .

نعم إن ضاق الوقت على التفريق جمع الكل وذكر فى البداية والوسط والنهاية ، وكل واحد يأخذ نصيبه ويشرب من منهله :

( قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ )[1] .

وهذه كانت طريقة الجنيد رضى الله عنه ، يلقى الحقائق على رءوس

---

( ١ ) سورة البقرة الآية : ٦٠ .

الأشهاد ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : علمنا محفوظ أن يأخذه غير أهله أو ما هذا معناه .

ثم عبارتهم بعد الإذن لا تكون إلا لحكمة بينها الشيخ بقوله :

[ **عبارتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد** ] .

قلت : ما اشتملت عليه قلوب العارفين من المعارف ، وأسرار التوحيد وغوامض العلوم التى لا تطيقها جل الفهوم هو سر من أسرار الله ، وهم أمناء الله عليها ، فلا يطلعون عليها إلا من رأوه أهلا لها إلا من كان مغلوبًا على حاله لا يقدر على إمساكها ، وهو من لم يتمكن من حاله فيها ، فعبارتهم إذًا إما لفيضان وجد غلبه فلم يقدر على إمساكها ، أو لأجل هداية مريد وإرشاده وترقيته إلى مقام استحق الاطلاع عليه ، وإلا فلا يظهرون من تلك الأسرار قليلًا ولا أقل من القليل ، وقد تقدم قول بعضهم : قلوب الأحرار قبور الأسرار . وقال آخر :

لَا يَكْتُمُ السِّرَّ إِلَّا كلُّ ذِى ثِقَةٍ  فَالسِّرُّ عِنْدَ خِيَارِ النَّاسِ مَكْتُومُ

ثم بين حال الفريقين ومقام الرجلين فقال :

[ **الأول حال السالكين** ] .

وهم المستشرفون من السائرين ، حققوا ولم يتمكنوا ، فهم مملوكون من يد الأحوال . إذا غلب عليهم الوجد فاضوا ولم يشعروا ، وإذا رجعوا إلى أنفسهم ندموا واستغفروا . ثم بين حال الثانى فقال :

[ **والثانى حال أرباب المكنة والمتحققين** ] .

وهم الراسخون المتمكنون ، فلا يعبرون عن تلك الأسرار إلا لأجل هداية المريدين ، وتربية السالكين وترقية السائرين ، وأما لغير هؤلاء فلا ، فإن عبر عنها السالك لا عن غلبة وجد كان فى ذلك نوع من الدعوى ، وإن عبر عنها المتمكن من غير قصد هداية كان فى ذلك إفشاء لأسرار الربوبية ، وهى عندهم أعز من الكبريت الأحمر . وقد كان الرجل يخدمهم سنين فلا يظهرون له منها قليلا ولا كثيرًا ، حتى إذا رأوه أعطى نفسه وفلسه وبذل روحه بالكلية أشاروا إليه إشارة خفية .

فقد ذكر شيخ شيوخنا سيدى على فى كتابه أن طائفة من المريدين خدموا شيخنا ثلاثين سنة ، ثم قالوا له : ياسيدنا أردنا أن تعرفنا بربنا ، فقال لهم : نعم غدًا ائتونى لدارى فلما أتوه أخرج لهم صبيًّا صغيرًا فوجهه إليهم ، ثم دخل ، فانظر هذه الإشارة ماألطفها وأخفاها ، ثم منّ الله على أهل هذا الزمان برجال كرام من صحبهم بالصدق ومنحوه من الأسرار فى يسير من الزمان ما لم يدركه المتقدمون فى الأزمنة الطويلة ، جزاهم الله عن الأمة المحمدية خيرًا .

وقد تكلم الشيخ أبو الحسن على حال السالكين والواصلين بكلام طويل ذكره فى لطائف المنن ، ونقله الشطيبى فقال : إن لله عبادًا محق أفعالهم بأفعاله ، وأوصافهم بأوصافه ، وذاتهم بذاته ، وحملهم من أوصافه ما يعجز عن سماعه عامة الخلق ، فهم مغرقون فى بحر الذات وتيار الصفات ، فنوا عن أفعالهم ، ثم فنوا عن صفاتهم ، ثم فنوا عن ذاتهم وبقوا بذات الله تعالى ، ولم يبق لهم منهم شىء ، ومن كان فى الله تلفه كان على الله خلفه ، ومن صح فناؤه صح بقاؤه .

ثم قال : واعلم أن الفناء يوجب الغيبة عما سوى الله قلت : وهو مقام السالكين ، والبقاء يوجب إيجاد كل شىء مع الله يعنى بالله ، فصاحب الفناء يقوم الله عنه ، وصاحب البقاء يقوم بالله عن الله ، وهما ولايتان ، فولى يتولى الله ورسوله والذين آمنوا ، وولى يتولاه الله وهو يتولى الصالحين .

قال الشيخ أبو الحسن : وعلامة الولاية الرضا بالقضاء ، والصبر على البلاء ، والفرار إلى الله عند الشدائد ، والرجوع إليه عند النوائب ، فمن أعطى هذه الأربعة من خزائن الأعمال والمجاهدة فقد صحت ولايته لله ورسوله وللمؤمنين ، ومن أعطيها من خزائن المنن والموادة فقد تمت ولاية الله له ، فالولاية الأولى ولاية صغرى ، والولاية الثانية ولاية كبرى . قيل له كيف يتولى الله ورسوله والذين آمنوا قال : يتولى الله بالمجاهدة ، لقوله تعالى :

( وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا )[1] ويتولى الرسول بالمتابعة ( قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ )[2] ( مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ

---

( ١ ) العنكبوت : ٦٩ .

( ٢ ) آل عمران : ٣١ .

فَقَدْ أَطَاعَ الله )[1] .

ويتولى المؤمنين بالاقتداء بهم ، وهى علامات من خاض بحر الولاية . وأما الذين تولاهم الله : فهم الذين صلحوا لحضرته ، وغابوا عن خليقته ، فلا يرون فى الوجود إلا الله : الأولى تسمى ولاية إيمان ، وهذه ولاية إيقان ، فقيل له : وما الفرق بين الإيمان والإيقان ؟ قال : كل يقين إيمان ، وليس كل إيمان إيقانًا ، فالإيمان ربما تدخله الغفلة ، والإيقان لا تدخله الغفلة . المؤمن يتجلى له الحق دون كل شىء ، والمؤمن يتجلى له الحق فى كل شىء ، المؤمن فانٍ عن كل شىء فلم يشهد مع الله شيئًا والموقن باق فى كل شىء ، فهو يشهد الله فى كل شىء اهـ .

ثم بين المؤلف رضى الله عنه فائدة التعبير وثمرة العبارة فقال :

**[ العبارة قوت لعائلة قلوب المستمعين ، وليس لك منها إلا ماأنت له آكل ] .**

قلت : العائل هو الفقير والعائلة جمع له ، فعبارة العارفين قوت لقلوب الفقراء الطالبين لزيادة إيقان قلوبهم ومشاهدة محبوبهم ، فلا يزالون فى حضانة الشيوخ وعيالهم حتى يكمل إيقانهم وترشد أحوالهم ، فحينئذ يستقلون بأنفسهم . وعلامة رشدهم أنهم يأخذون النصيب من كل شىء ، ولا ينقص من حالهم شىء ، يفهمون عن الله فى كل شىء ، ويعرفون فى كل شىء ، ويشربون من كل شىء ، فإذا كانوا كذلك فقد استقلوا بأنفسهم، وتأهلوا لإرشاد غيرهم .

قال بعض الحكماء : من لم يفهم صرير الباب ، ولاطنين الذباب ، ولا نبيح الكلاب ، فليس من ذوى الألباب .

وأما من لم يبلغ هذا المقام فلابد أن يلزم العش فى حضانة من يرزقه ويطعمه ، فإذا طار من العش قبل تربية الجناح اصطادته الكلاب والبيزان ، ولعبت به النساء والصبيان ، فإذا كان فى عش الشيخ وكان يطعمه مع غيره فليس له من القوت إلا ما يقدر أن يأكله وإلا قتله ، فليس طعام الصبى الصغير كطعام الرجل الكبير ، وكذلك عبارة الشيوخ للمريدين كل واحد يأخذ ما يليق

---

( ١ ) النساء : ٨٠ .

بحاله ، فالشيوخ يذكرون فى الجملة ، فيذكرون أحوال البدايات والنهايات والوسط وكل واحد يأخذ ما يليق به :

( قَدْ عَلَمِ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ) .

فلا يتعلق المبتدى بمذاكرة المنتهى فيفسد ، كما إذا أكل الطفل الصغير طعام الكبير يقف فى حلقه ، وإذا أكل الكبير طعام الصغير لا يشبعه ، هذا معنى قول الشيخ : وليس لك منها إلا ما أنت آكل : أى ليس لك من قوت العبارة إلا ما أنت قادر على أكله وإلا غصصت به ، والله تعالى أعلم .

وقد سألنى بعض الإخوان عن قوت الروحانية والبشرية . فقلت : قوت البشرية معلوم ، وقوت الروحانية على وزان قوت البشرية ، فالصبى لا يطيق الطعام الخشن حتى يكبر ، كذلك الروح تربى شيئًا فشيئًا ، فتطعم أولا ذكر اللسان فقط ، ثم ذكر القلب مع اللسان ، ثم ذكر القلب فقط ، ثم ذكر الروح وهو الفكرة ، ثم ذكر السر وهو النظرة ، ثم تأكل كل شىء وتشرب من كل شىء حتى تسرط[1] الكون بأسره ، فلو أعطيتها الفكرة أو النظرة الذى هو طعام الرجال أول مرة وهى فى مقام الأطفال للفظته وطرحته ، فإذا بلغت الروح أن تأكل كل شىء وتشرب من كل شىء ، فقد صح لها أن تطير فى الملكوت الأعلى وتذهب حيث تشاء .

وقد يختلف الشرب لجماعة من آنية واحدة لاختلاف مقامهم كقضية الرجال الذين سمعوا قائلا يقول : ياسعتر برى ، وذلك أن رجلا فى الصفا بمكة صاح ياسعتر برى لرجل آخر كان اسمه ذلك فسمعه الثلاثة ، فكل واحد تعلق بذهنه مايليق بحاله ، فسمع أحدهم الساعة ترى برى ، وسمع الآخر : اسع تر برى ، وسمع الثالث : ما أوسع برى فالأول كان مستشرفًا ، والثانى مبتديًا ، والثالث كان واصلا . وكذلك قضية ابن الجوزى كان يقرأ ببغداد اثنى عشر علمًا فخرج يومًا لبعض شئونه ، فسمع قائلا يقول :

إِذَا العشْرُونَ مِنْ شَعْبَانَ وَلَّتْ ... فَوَاصِلْ شُرْبَ لَيْلِكَ بِالنَّهَارِ

وَلَا تَشْرَبْ بِأَقْدَاحٍ صِغَارٍ ... فَقَدْ ضَاقَ الزَّمَانُ عَلَى الصِّغَارِ

---

(١) سرط الشىء : ابتلعه وسار سيرًا سهلا . مصححه .

فخرج هائمًا على وجهه إلى مكة ، فلم يزل يعبد الله بها حتى مات رحمه الله ، ففهم من الشاعر انصراف العمر وضيق زمان الدنيا كله .

قال فى لطائف المنن : واعلم أن هذه المفهومات المعنوية الخارجة عن الفهم الظاهر ليست بإحالة اللفظ عن مفهومه ، بل هو فهم زائد على الفهم العام يهبه الله لهذه الطائفة من أرباب القلوب ، وهو من باطن الحكم المندرج فى ظاهره اندراج النبات فى الحبة ، وذلك أن المدد النورانى والفتح الربانى يتصل بعضه ببعض إلى الطرف الظاهر حيث انتهت القوة انتهى الإدراك ، فربما فهموا ما يوافق ظاهر المعنى الباطنية ، وربما خالفه من جهة ما ، وربما كان الفهم بعكس ظاهره .

وقد كان الشيخ مكين الدين بن الأسمر رضى الله عنه ممن يشهد له الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه بالولاية الكبرى والمكاشفة العظمى ، فأنشد إنسان فى مجلسه .

لَوْ كانَ لى مُسْعِدٌ بالراحِ يُسْعِدُنى ... لَمَا انْتَظَرْت لِشُرْبِ الرَّاحِ إفْطَارَا
الرَّاحُ شَىء شَرِيفٌ أَنْتَ شَارِبُه ... فَاشْرَبْ وَلَوْ حَمَّلَتْكَ الرَّاحُ أَوْزَارَا
يَامَنْ يلُومُ عَلَى صَهْبَاءَ صَافِيَةٍ ... خُذِ الجِنَانَ وَدَعْنِي أَسْكُنُ النَّارَا

فقال بعض فقهاء الظاهر : لا يجوز قراءة هذه الأبيات ، فقال الشيخ مكين الدين : قل دعه فإنه رجل محجوب ، يعنى أنه لا يفهم إلا الشراب الحسى دون المعنوى وهو جمود ، والله تعالى أعلم .

ثم إن العبارة لا تدل عل حال المعبر ، فقد يكون فوق ما يقول ، وقد يكون دون ما يقول كما أشار إلى بيان ذلك بقوله :

[ ربما عبر عن المقام من استشرف عليه وربما عبر عنه من وصل إليه ، وذلك ملتبس إلا على صاحب بصيرة ] .

قلت : العبارة لا تدل على نهاية المعبر ولا وصوله إلى ما عبر عنه ، فقد يعبر عن المقام من لم يصل إليه ، ولكن استشرف عليه ، وقد يعبر عنه من وصل إليه ، وربما عبر عن المقام وقدمه فوق ما عبر عنه وذلك ملتبس ، إذ لا يعرف

المستشرف من الواصل إلا ذو بصيرة نافذة ، يعنى من فتح عليه فى المعرفة ، فلك من فتح عليه فى معرفة الله ورفع عنه الحجاب عرف كلام الواصل من المستشرف ، فليس من خالط البلد ووصفها ثم نعتها كمن استشرف عليها ولم يدخلها ثم جعل ينعتها .

قال بعضهم : وقد يعرف المستشرف بطول التعبير والواصل باختصاره ، فالمستشرف يطول العبارة ويكررها ، والواصل من أول مرة يدركها . وقد قالوا : العارف بالضرب لا يكثر الهنى ، والعارف بالمفاضل لا يكثر الحنى .

قلت : وهذه القاعدة ليست كلية ، إذ كثير من العارفين الواصلين تطول عبارتهم لمعرفتهم بمفاصل الخطاب ، ومن المستشرفين من تقصر عبارتهم .

قال المؤلف رضى الله عنه : الاستشراف والوصول ليس إلا مراتب التوجه للتحقق بالعجز ، فمن وصل لمعرفة العجز عن الوصول فهو الواصل ، لكن العجز لا يكون إلا بعد الاتصاف به حقيقة لا مجازًا ، وذلك أن الجاهل عجزه حالى قهرى ، والعارف عجزه جلالى رحمانى .

قلت : المراد بالعجز فى حقه الحيرة والدهش أوّلا ، ثم العجز عن الإحالة والكنه ثانيًا ، ثم قال : يشهد لذلك أن الجاهل متى تحرك وقع فى الحظوظ ، والعارف لا يتحقق إلا بالحقوق ، والجاهل نصيبه الوهم ، والعارف نصيبه الفهم ، الجاهل طالب للعلم ، والعارف طالب للمعلوم . الجاهل تابع بنظره للصور الحسية ، والعارف غائص ببصيرته مع الأرواح المعنوية ، وجميع المراتب والمقامات مراحل بين الحس والمعنى ، وانتقال من الهياكل الجسمية للعوالم القلبية ، ثم من العوالم القلبية إلى الحقائق الروحانية ، ثم من الحقائق الروحانية إلى الأسرار الربانية ، ثم من الأسرار الربانية إلى المعارف التوحيدية اهـ .

ثم لا ينبغى للسالك أن يعبر عن هذه الأسرار إذا واجهته فى طريق السلوك ، كما أبان ذلك بقوله :

**[ لا ينبغى للسالك أن يعبر عن وارداته ، فإن ذلك مما يقلل عملها فى قلبه ويمنعه وجود الصدق فيها مع ربه ] .**

قلت : المريد فى حال سيره مأمور بالكتمان لعلمه وعمله وحال وارداته ، فإفشاؤه لعمله من قلة إخلاصه ، وإفشاؤه لأحواله من قلة صدقه مع ربه .

وأيضًا الأحوال تأتى من حضرة قهار فتزعج القلوب خوفًا وتقلقها شوقًا ، فإذا أفشى ذلك كان تبريدًا لها وإطفاء لنورها ، كمن غلت قدرته فصب فيها الماء البارد فيطول عليه غليانها ثانيًا ، ولو قلل نارها وحركها لاستفاد إدامها ، كذلك الواردات الإلهية تفجأ القلوب لتحركها إلى النهوض إلى مولاها ، فإذا أفشاها وذكرها للناس قل عملها فى قلبه ودل على صدقه فيها مع ربه .

قلت : ومن ذلك استعمال الأحوال التى تُميت النفوس لا ينبغى إفشاؤها ، فللنفس حظ فى ذلك لأنها مجبولة على حب المدح والذكر الحسن ولو من الإخوان . كثيرًا ما ترى بعض الفقراء يذكرونها ويتبجحون بها وهو غير صواب ، نعم إن كان يقتدى به فيذكرها للاقتداء ولإنهاض الفقراء فذلك حسن مع نية حسنة ، وكثيرًا ما تستعمل هذه الأحوال فى حال السؤال فلذلك ذكره بأثر .

أو تقول : لما كان التعبير عن الواردات الإلهية مما يوجب الإقبال والتعظيم ، فيؤدى ذلك إلى العطاء فيحتاج إلى آداب القبض بين ذلك بقوله :

**[ لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك ، فإن كنت كذلك فخذ ما وافقك العلم ] .**

قلت : مد اليد إلى الأخذ من الخلائق على قسمين : إما أن يكون من غير سؤال أو بعد السؤال ، ولكل واحد منهما أحكام .

أما الأخذ من غير سؤال فشرطه أمران : أحدهما علمى ، والآخر صوفى .

أما العلمى فلا يأخذ ممن كسبه حرام ، ولا مخلط ، ولا محجور عليه كالصبى والمجنون والعبد .

وأما الصوفى ، فلا يقبض حتى يعرف ممن يقبض علمًا وحالا ، فإن اتسعت معرفته وتحقق فناؤه بحيث لم يبق له نظر للواسطة أصلا فربما يسلم له القبض مطلقًا ، لأنه يقبض من الله ويدفع بالله ، ولكن الكمال هو الجمع بين الحقيقة والشريعة ، وقد كان كثير من الصوفية الحقيقيين يقبضون جوائز السلطان ثم يدفعونها على أيديهم .

وأما القبض بعد السؤال فالكلام عليه من وجهين : الأول فى جواز السؤال

ومنعه . والثانى فيما يقبضه بعد أخذه .

أما حكم السؤال فأصله الجواز ، قال الله تعالى :

( وأَمَّا السَّائلَ فَلَا تَنْهَرْ )[1] .

فلو كان ممنوعًا ما نهى الله عن نهره . ثم تعتريه الأقسام الخمسة : يكون واجبًا ، ومندوبًا ، ومباحًا ومكروهًا ، وحرامًا .

**فأما الواجب** : فهو ما يكون لسدّ الرمق ، بحيث إذا ترك السؤال مات فهذا واجب عليه ، فلو تركه حتى مات ، مات عاصيًا فأوجبه الشارع خوفًا على فوات حياة البشرية الحسية ، وأوجبته الصوفية أيضًا على من خاف فوات حياة الروحانية بحيث منعته الرياسة من حظ رأسه وذبح نفسه . فقد نقل القسطلانى فى شرح البخارى عن ابن العربى المعافرى أنه قال هو واجب على المريد فى البداية .

فتحصل أنه واجب حيث يخاف فوات حياة البشرية أو الروحانية ، وإليه أشار ابن البناء بقوله :

وَما عَلَى السَّائِلِ مِنْ تَأْوِيلِ ... لِأَجْلِ قَهْرِ النَّفْسِ وَالتَّذْلِيلِ
فَمنْ أُولى الأذْوَاقِ وَالأَحْوَالِ ... مَنْ كَانَ رَاضَ النَّفْسَ بِالسُّؤَالِ
قَالُوا وَلَا خَيْرَ إِذًا فى الْعَبْدِ ... مَالَمْ يكُنْ قَدْ ذَاقَ طَعْمَ الرَّدِّ

وبالجملة فهو لرياضة النفس واجب أو مندوب .

وكان إبراهيم الخواص تعرض عليه الألوف فلا يقبلها ، وربما سأل من يعرف من الناس الدرهم والدرهمين لا يزيد على ذلك .

**وأما المندوب** : فهو أن يسأل لغيره فهو من التعاون على البر ، فيسأل الطعام ليطعمه من يستحى ، أو يسأل اللباس أو غير ذلك . وقد سأل النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين قدموا عليه عراة . ويدخل فى المندوب ما كان لرياضة النفوس حيث لم يخف عليه كما تقدم .

**وأما المكروه** : فهو أن يسأل لقوت البشرية مع القدرة على الاستغناء عنه

---

( ١ ) الضحى : ١٠ .

بسبب من الأسباب ، وهذا ما لم ينقطع للعبادة ويتجرد إلى الذكر . وأما المنقطع إلى الله فلا بأس به وقد فعله كثير من العارفين المحققين .

فقد كان أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد يسأل بابًا أو بابين أو ثلاثًا بين العشاءين فكانت العامة تتعجب منه أوّلا ثم عرف بذلك ، فكان لا يعيبه عليه العامة ولا الخاصة مع جلالة قدره وعلو معرفته بربه .

وكان الشيخ أبو سعيد الخراز إذا اشتدت به الفاقة يمد يده ويقول من عنده شيء لله ؟

وكان إبراهيم بن أدهم معتكفًا بجامع البصرة ولا يفطر إلا من ثلاثة أيام إلى ثلاثة أيام ، يخرج بعد صلاة المغرب يطلب على الأبواب فطره .

وكان سفيان الثورى رضى الله عنه يسأل الطعام لله ، فإن فتح بكثير أخذ كفايته وترك الآخر . وأكثر الرجال على هذه الحال قطعوا الدنيا الفانية لإيثارهم الأخرى الباقية ، وكل ذلك لا يقدح فى شريعة ولا حقيقة ، ولا يطفئ نور المعرفة ، وقد أشار ابن البناء إلى هذين القسمين ، أعنى المندوب والمكروه فقال :

وَكَرِهُوا سُؤَالَهُ لِنَفْسِهِ ثُمَّ أَبَاحُوهُ لأَجْلِ جِنْسِهِ
وَلَمْ يَعُدُّوهُ مِنَ السُّؤَالِ لكِنْ مِنَ العَوْنِ عَلَى الأعمَالِ
إذْ كانَ خَيْرُ الخلقِ فى أَتْرَابِهِ يَسأَل أَحيَانًا إلَى أَصْحَابِهِ

وأما المباح : فهو أن يسأل الحاجة غير الضرورية كسؤاله لقضاء دينه ، أو ما يزيد على ستر عورته وسد رمقه ، أو غير ذلك مما ليس بضرورة لكنه حاجى : أى محتاج إليه .

وأما المحرم : فهو أن يسأل تكثرًا أو زيادة على ما يكفيه .

وفى الحديث : « مَنْ لَهُ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا فَالسؤَالُ عَلَيْهِ حَرَامٌ » وفيه ورد الحديث : « إنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القيامَةِ وَلَيْسَ فى وَجْهِهِ مُزْعَةُ لحَمٍ » .

ومن المحرم أيضًا ما فيه إلحاح وإضرار بالمسئول . قال تعالى :

( لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا )[1] .

قلت : وأما ما يفعله بعض أصحابنا من صورة الإلحاح بنا ، فإنما قصدهم بذلك قتل نفوسهم بما يسمعون من المسئول فى جانبهم ، ولا يفعلونه إلا مع من يعرف عندهم بالإنكار ، فيستخرجون منه الجلال اختبارًا لأنفسهم ، وقد يقصدون بذلك تحقيق الإخلاص وسترًا للحال ، فيظهرون الرغبة وهم من أزهد الناس تحقيقًا للاكتفاء بعلم الله ، وما كان ذلك إلا فى حال قوتهم وجذبهم فالسكر غالب عليهم ، هذا ما حققته منهم ، وقد انقطع ذلك كله اليوم ، فما بقى إلا أهل الصفاء وأهل الوفاء .

وسبب دخول السؤال فى هذه الطائفة أن شيخ شيوخنا سيدى على الجمل العمرانى رضى الله عنه كان له جاه ووزارة ورياسة فى فاس ، فلما دخل فى يد الشيخ ورأى صدقه وجدّه قال له : أرى لك خمرة لم يقدر عليها أحد قبلك ، ولولا ما رأيت فيك من الصدق والجد ما دللتك عليها ، قال : وما هى ياسيدى ؟ فقال السوق للسؤال ، هكذا سمعته من بعض الإخوان .

والذى رأيته فى كتابه أنه قال له : ياولدى أراك تطلب هذا العلم ولا تنال منه ما تريد إلا بالذل ، فدخل فيه وسكن إلى مماته ، فلما ذاق سره ورأى ما فيه من الأسرار ، وما يقطع به المريد فى سيره من المفاوز والقفار ، سير أصحابه عليه ودلهم على استعماله ، فكان أصل مشروعيته قتل النفوس ، لا قبض الفلوس ، فمن استعمله لقتل النفوس ، ولَج حضرة القدوس ، إذا ما حجبنا عنها إلا حياة النفوس ، ومن استعمله لقبض الفلوس نال الشقاء والبؤس . وينبغى أن يكون فى حال السؤال يده مشيرة إلى الخلق وقلبه معلق بالحق ، قال فى المباحث :

وَآدابُ الصُّوفِيِّ عِنْدَ المسْأَلَهْ أَنْ يَدْخُلَ السُّوقَ إِلَيْهِ يَسْأَلَهْ
لِسانُهُ يُشِيرُ نحْوَ الخَلقِ وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالحَقِّ

وقد ذكر ابن ليون التجيبى السؤال ، وبين أصله ، وذكر مسألة الزنبيل .

---

( ١ ) البقرة : ٢٧٣ .

وكيفيته أن يتوضأ الرجل ويصلى ركعتين ، ويأخذ الزنبيل يعنى وعاء بيده اليمنى ، ويخرج إلى السوق ومعه رجل آخر يذكر الله ويذكر الناس ، والناس يعطونه فى ذلك الزنبيل حتى يجمع ما تيسر من الطعام ، ويصبه بين الفقراء فيأكلون طعامًا حلالا بلا تكلف ولا كلفة هذا ما تيسر لنا فى حكم السؤال .

والذى يظهر لنا فى تركه اليوم أحسن من استعماله ، إذ زالت هيبته وصار حرفة من الحرف ، فصارت نفس كثير من الفقراء تبطش إليه ، وما ذلك إلا لما فيه من الحظ عندها ، والله تعالى أعلم .

وأما ما يأخذه من السؤال ، فإن كان فقيرًا إليه أخذه ، وإن كان غنيًّا عنه تصدق به خفية بالليل مثلا .

وكان شيخ شيخنا رضى الله عنه يقول : كان قصدنا من السؤال قوت الأرواح ، فلما خرج منه قوت الأشباح تبارك الله ، يعنى فيأخذه من اضطر إليه وبالله التوفيق ، وهذه الحكمة التى ذكرها الشيخ هى من أعظم المهمات التى يحتاج إليها أهل التجريد ، وليس مقصوده الكلام على السؤال ، إنما مقصوده الدلالة على تربية اليقين . وعدم التشوف إلى المخلوقين فلا يعلق قلبه بالمخلوق ، فإن تشوف إليه فينبغى ألا يقبض ما يعطاه ، ولا يمد يده إلى الأخذ منه حتى يرى أن المعطى هو الله ، ويكون ذلك ذوقًا وحالا .

قلت : وهذا الشرط إنما هو فيما يأخذه بغير سؤال . وأما فى حال السؤال فلا يشترط بل يكون علمًا ومجاهدة حتى يصير حالا وذوقًا . وأما ما يأخذه بغير سؤال فلابد من هذه المعرفة .

وقال شيخ شيخنا : لا تشترط هذه المعرفة بل يكفيه العلم فيها ، وهو الأصح ما لم تتشوف نفسه إلى الخلق ، فإن تشوفت نفسه فليكف عن القبض من الخلق ، وليكتف بضمان الملك الحق . قال تعالى :

( وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فى الأَرْضِ إِلَّا عَلَى الله رِزْقُهَا )[1] .

قيل لبعضهم : كيف خرجت من الدنيا بعد أن كانت فى يدك ؟ قال : نظرت منصفًا فى معنى قوله تعالى : ( وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها )

---

( ١ ) هود : ٦ .

فرأيت جميع الخلق من البعوضة إلى الفيل تكفل الله لهم بالرزق ، ففوضت أمرى إليه ، واشتغلت بالعبادة .

وقال عيسى عليه السلام : لا تهتموا بالرزق ، فإن الذرة على صغرها تؤتى كل يوم برزقها الحديث .

وقال أيضًا عليه السلام : عجبت لمن يعمل للدنيا وهو يرزق فيها بلا عمل ، ولا يعمل للآخرة وهو لا يرزق فيها إلا بالعمل .

وقال صلى الله عليه وسلم :

«مَنْ كانَ هَمُّهُ الآخِرَةَ جَعَلَ الله غِنَاهُ فى قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِىَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَ هَمُّهُ الدُّنْيَا جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْه ، وَلَم يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَاقُدِّرَ لَهُ ، وَإِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الْعَبْدَ كمَا يَطْلُبُهُ » .

وكان يحيى بن معاذ يقسم أنه لا تسكن الحكمة قلبًا فيه ثلاث خصال : هم الرزق ، وحسد الخلق ، وحب الجاه .

وكان حبيب العجمى يخدم الحسن البصرى فصنع حبيب طعامًا لإفطارهما وإذا بسائل فأعطاه جميعه ، فقال الحسن : ياحبيب إنك كثير اليقين ، قليل العلم ، فهلا أعطيته النصف ونتقوت بالنصف ؟ فقال : ياسيدى ثوابه لك وأنا أستغفر الله ، فلما جن الليل وإذا بقارع على الباب فخرج حبيب فوجد عبدًا معه طعام كثير والشتاء ينزل والغلام يبكى ، فقال له : ما هذا ، قال طعام ، قال لى سيدى إن قبله منك الحسن البصرى فأنت حر لوجه الله ، وقد طال على الرق ، فقال حبيب : لا إله إلا الله عتق رقبة وإطعام جائع ، ثم دخل به على الحسن وقال : ياسيدى إنك كثير العلم قليل اليقين ، فقال : ياحبيب تقدمناك وسبقتنا اهـ .

قلت : ولشيخ شيخنا مثل هذه الحكاية ، ذكرها لى بعض أصحابه ، ثم سألته عنها فقال : هى صحيحة ، وذلك أن أهله صنعوا طعامًا جيدًا ، فلما وضعوه بين أيديهم وإذا بسائل يسأل ، فأخرجه له الشيخ كله وبقى أولاده بغير عشاء ، فلما كان بعد صلاة العشاء وإذا برجل يدق الباب ، فخرج الشيخ فوجد رجلا معه

مائدة فيها ألوان من الطعام ، فأدخلها لعياله رضى الله عنه .

وقال بعض الأغنياء : كنت نائمًا وإذا بإنسان قد وقف علىّ فى عالم النوم وزجرنى وقال لى : أجب الملهوف ، فانتبهت وأنا مذعور ولم أدر ما أصنع ، فأوقع الله فى قلبى أن أخذت صرة فيها مائة دينار وركبت دابة وأطلقت زمامها ، فخرجت بى من العمران إلى مسجد خرب ووقفت ، فنزلت ودخلت المسجد فوجدت مسكينًا وهو يتضرع إلى الله ويسأله من فضله ، فسألته عن حاله ؟ فقال : أنا صاحب عيال ولى بنيات منذ ثلاث ما طعموا ، فأنا أسأل الله من فضله ، فدفعت له المائة وقلت له : إذا نفدت فاسأل عنى فأنا فلان وائتنى ، فقال : لا والله ما أسأل غير الله ، ثم انصرفت وأنا متعجب من ثقته بالله تعالى .

فهذه حكاية جنود من جنود الله تعالى تقوِّى اليقين وتوجب الثقة برب العالمين ، فيستحى العبد من الله أن يرفع حاجته إليه ، فأولى ألا يرفعها إلى غيره كما بين ذلك بقوله :

**[ ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه اكتفاء بمشيئته ، فكيف لا يستحيى أن يرفعها إلى خليفته ] .**

قلت : العارف هو الذى بلغ من التقرب والقرب حتى امتحق عن نفسه بالكلية ، وزالت عنه الأينية والغيرية ، بحيث لم يبق له عن نفسه إخبار ، ولا مع غير مولاه قرار ، فإذا أراد أن يسأل عبودية استحيا من مولاه أن يثبت معه سواه ، اكتفاء بمشيئته ، وتحقيقًا لأحديته ، فإذا كان يستحيى من مولاه أن يرفع حوائجه إليه فكيف لا يستحيى منه أن يرفعها إلى غيره ، فلا جرم أن الحق سبحانه يعطيه أفضل ما يعطى السائلين ، ويبوئه فى مقعد صدق مع النبيين والصديقين ، وقد تقدم الحديث « من شغله ذكرى » إلخ .

وقال سهل بن عبد الله : ما من وقت إلا والله تعالى مطلع فيه على قلوب عباده ، فأى قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلط عليه الشيطان وحجبه عنه اهـ .

وقيل للواسطى لم لا تسأل الله شيئًا ؟ فقال : أخشى أن يقال لى : إن سألنا

الذى لك عندها فقد اتهمتنا ، وإن سألتنا ما ليس لك عندها فقد أسأت الأدب معنا ، وإن سلمت الأمر لنا ونظرت بنظرنا أجرينا لك الأمور على مقتضى الموافقة اهـ هذا آخر الباب الموفى عشرين .

وحاصلها : الكلام على الكرامات وما ينشأ عنها من العبارات ، لأن الكرامات الحقيقية هى الاستقامة على العبودية ، ومشاهدة أنوار الربوبية ، فإذا تحقق ذلك فى الولى فاض بالحكم وأذن له فى التعبير ، فحينئذ ربما يقبل عليه الخلق بالعطاء ، فإذا عرف فيهم مولاه حل له الأخذ من أيديهم وإلا فلا .

وأما السؤال منهم لقوت البشرية ، فلا يتصور من العارفين ، استحياء من الله واكتفاء بعلمه ومشيئته ، هذا مقام الواصلين . وأما السائرون فهم عاملون على مجاهدة نفوسهم ، فإن ثقل عليها السؤال قدموها إليه ، وإن ثقل عليها الفاقة والصبر والاكتفاء بالمشيئة والعلم قدموه ، كما بين ذلك الشيخ رضى الله عنه فى أول الباب الحادى والعشرين بقوله رضى الله عنه :